



إيبارشية جنوبي الولايات المتحدة الأمريكية الرسالة الشهرية للرهبان والراهبات والمكرسين والمكرسات

مايو ٢٠١٨

أحبائي الأعزاء،

في هذا الشهر من العام الماضي، ناقشنا ما يعنيه أن نُدعى بلقب "أبونا" أو "أمنّا"، وقد ذكرنا أنه إذا كنا حقاً نعيش كما يعني عنوان هذا الشكل الرهباني، فنحن إذن نعيش حياة إنكار الذات، ونموت كل يوم (١كو٥: ٣١)، ونحيا في حياة الشركة، وفقاً لنذورنا، كبركة للآخرين، باذلين الحب بسخاء، وأيضاً متقبلين جميع الأشياء التي تأتي في طريقنا كفرص لأجل التعلم والنمو في الفضيلة.

ذكرنا أيضاً أن الله يُعَلِّمُ الْوُدْعَاءَ طَرَفَهُ (مز ٢٥: ٩)، وأن الأب والأم الحقيقيان يعطيان الحب بسخاء، ولا يسعيان إطلاقاً فيما لأنفسهما، أو يجعلان مشيئتهما الذاتية فوق اعتبار الآخرين قط.

هذا العام أود الاستمرار في نفس السياق الفكري، لكن مع التوسع في شرح فضيلة محددة، ألا وهي التواضع. دعونا نتناول هذه الفضيلة على ما أظنه في سياق الفكر الرهباني؛ ببساطة، الفكر الرهباني هو فكر متضع. أعلم تماماً أن القول أسهل كثيراً من الفعل.

فضيلة التواضع ليست شيء نستطيع الحصول عليه بين يوم وليلة – كثيرون من آباء البرية يقولون عن هذه الفضيلة أنها هي أم جميع الفضائل – ولهذا ليس لمجرد أننا ندرك هذه الحقيقة فقط، فإن التواضع سيصبح هو منيح حياتنا. لقد كان التحاقنا بالدير لأجل أن نجاهد متقدمين نحو حياة الكمال، ولذلك نحن نحارب بقوة ضد إنساننا العتيق داخلنا، ذلك الذي يشتهي بشدة أن يعيش حياة مختلفة جداً عما نحياه في الرهبة، وهذا الإنسان العتيق يُسِّرُ بأن يُذكرنا بما يشتهي على قدر استطاعته. ولذلك، فمن الضروري أن نتذكر دائماً، وفي كل وقت، أن فكر الاتضاع هو هدفنا. ولعلك تتسأل ماذا أقصد بهذا؟!

الفكر المتضع هو فكر مطيع وخاضع. على الرغم من أننا قد لا نتمتع بهذا الفكر تماماً، لكننا نجاهد لكي يعطينا الله هذه النعمة. لذلك لا بد أن يكون هذا الفكر أمام ضمائنا طوال اليوم، لكي عندما نتعامل مع إخواننا أو أخواتنا، يعكس سلوكنا وكلامنا معهم هذا الفكر المتضع.

على سبيل المثال، قد لا نرتاح في التعامل مع أولئك الذين نعمل معهم، ونسعى بالتالي إلى الأعمال التي يمكننا العمل فيها بمفردنا، أو على الأقل مع أفراد محددين نميل إليهم. إذا كان الحال هكذا، فينبغي أن نسأل أنفسنا: لماذا؟ وعندما نتوصل إلى الإجابة، يجب أن نسأل أنفسنا ثانية: إذا كان لدينا فكر متضع فهل كان سيتم حل هذه المسألة؟ أضمن لكم أن الجواب سيكون دائماً بـ "نعم".

"اضطرب أخ من الوحدة وهو في القلاي، فقام ومضى إلى الأب ثيودورس الفزيمي وأطلعه على أمره. فأجابه: اذهب وتواضع بفكرك واخضع للإخوة بمكوئك معهم".^(١)

عندما تجد نفسك تتدمر بسبب الآخرين، أريدك أن تتوقف وتغير منظورك... ركز على نفسك أيها الراهب الذي مات عن العالم، وأنظر هل تفعل شيئاً خاطئاً. ثم بعد أن تحكم على نفسك بدلاً من أن تحكم على أخيك أو أختك، ووجدت نفسك بطريقة ما بريئاً تماماً، عندئذ أسأل نفسك هذا السؤال: "كيف يمكنني التعامل مع هذا الموقف باتضاع؟". أعدك يا صديقي العزيز الحبيب، بمجرد أن تدخل في مثل هذه الصلاة التأملية البسيطة، سوف تشعر بالسلام، وسوف تجد الرب يتكلم مباشرة إلى قلبك.

في أي وقت وعلى الدوام، عندما تجد نفسك تعيش وفقاً لرغباتك الخاصة، في ذات الوقت الذي تجد فيه صعوبة في الخضوع... مضجراً ومتبرماً من قوانين الدير... لك آراء في أشياء كثيرة حولك.... مفضلاً أن تقود الآخرين، بدلاً من أن تنقاد بخضوع وتسليم... عندئذ عليك أن تدرك أنك بعيد

(١) أقوال الآباء الشيوخ – آباء الكنيسة، الأب ثيودورس الفزيمي، ترجمة معهد يوحنا الدمشقي، منشورات النور ١٩٩٠، بيروت، ص ١٢٠.

جداً عن الفكر الرهباني (بمعنى أدق، ربما تكون أقرب إلى فكر أحد أعضاء الأسرة الملكية الحاكمة). التداريب الروحية من شأنها أن تساعدك على إخماد الإنسان العتيق داخلك، وتقوية الإنسان الجديد الروحاني، ومن خلال روح الاتضاع، يكون الطريق إلى قول كلمة "حاضر" بسرعة، بدلاً من تقديم رأي آخر، وكذلك يكون قبول جميع الأشياء بشكر، بغض النظر عن مدى صعوبتها. "حقاً يارب إن لم نتضع فلست تكف عن تذليلنا وتوضيعنا. الاتضاع الحقيقي يتولد من المعرفة، والمعرفة الحقيقية تتولد من التجارب".^(١)

لا تياأس يا حبيبي، طريق التواضع هو في الحقيقة طريق ضيق المسلك. "ولَكِنَّ الَّذِي يَصْبِرُ إِلَى الْمُنتَهَى فَهَذَا يَخْلُصُ" (مت ١٠: ٢٢) ... تشجع، فهذا هو الطريق الذي سلكه ربنا يسوع المسيح... في كل مرة تقع في الكبرياء، عُدْ إلى نفسك مرة أخرى واتضع... ابحث عن التشجيع بتذكر سير القديسين والمداومة على قراءة تعاليم آباء البرية، يقول آبا سريابيون: "إذا أردت أن تكون متواضعاً، درب نفسك على تحمل ما يأتيك من الآخرين، ولا ترضى (في قلبك) بالكلمات العديمة النفع وحسب".^(٢)

وإذا كنت ترغب في معرفة مكانك فيما يتعلق بالتواضع، يقول لنا القديس مار إسحق السرياني: "ولا تغضب عليّ في قولي الحق لك، من أنك ما طلبته البتة (أي الاتضاع) في نفسك، فإن أنت أردته فسر في بلدته، وسوف تعانين كيف يزيل عنك الشرور، لأنه بمقدار اتضاعك ينعم عليك بالصبر في أحزانك، وبحسب احتمالك يخف عليك وقت شدائدك وتحظى بالعزاء، وبقياس العزاء تعظم محبتك لله عزوجل، لأن محبة الله جليلة القدر وعظيمة الشأن، وبمقدار محبتك تعظم مسرتك في الروح القدس".^(٣)

"أرجوكم يا أحبائي، باسم يسوع المسيح، أن لا تهملوا خلاصكم، بل ليمزق كل واحد منكم قلبه وليس ثيابه (يوئيل ٢: ١٣)، خوفاً من أن نكون قد لبسنا ثوب الرهينة باطلاً، وإنما بذلك نقود أنفسنا إلى الدينونة".^(٤)

سلام ومحبة ربنا يسوع المسيح تكون معكم جميعاً.

والمجد لله دائماً ابدياً. آمين.

(٢) ميامر مار اسحق السرياني ج٣، الباب الـ ١٨، في أنواع الفضائل. إعداد القمص تادرس السرياني، دير السريان ٢٠٠٣، ص ١٢٦.

(٣) أقوال الآباء الشيوخ، الأب سيرابيون، ترجمة معهد يوحنا الدمشقي، منشورات النور ١٩٩٠، بيروت، ص ٢٨١.

(٤) ميامر مار اسحق السرياني ج٣، الباب الـ ٢١، في أنواع التجارب. إعداد القمص تادرس السرياني، دير السريان ٢٠٠٣، ص ١٤٤.

(٥) رسائل القديس أنطونيوس ٧-١، الرسالة الثانية، مركز دراسات الآباء، ترجمة بيت التكريس لخدمة الكرازة ١٩٩٧، ص ١٢.